النظرية الفنية والجمالية لدى مدرسة فرانكفورت، أدورنو أنموذجا

The artistic and aesthetic theory of the Frankfurt school, Adorno is a model

تاريخ الاستلام: 2023/01/18 تاريخ القبول: 2024/01/31 تاريخ النشر: 2024/02/01

أ. نعيمة بن عروس *

جـــامعة مصطفى إسطمبولي – معسكر (الجزائر)

Email : naima.benarroussa@univ-mascara.dz

الملخص:

احتل الفن والدراسات الجمالية مكانة هامة في البحوث الفلسفية والفكرية المعاصرة ،وتعتبر مدرسة فرنكفورت من أهملنظرين للمسائل الفنية والجمالية فقد عُ نيت النظرية النقدية بتحليل الصور والإنتاج الفني، ونقده وتمحيصه لإبراز الفن الحقيقي منه عن الزائف المخادع، ولعل "أدورنو" يعتبر من أهم رواد المدرسة تركيزا على هذا المجال من خلال اسهاماته المهمة في التنظير لمبادئ وأسس الفن والخبرات الجمالية، ملحا على تحرير العقول والخيالات، وبالتالي تحرير الفن الهادف لإصلاح المجتمعات المعاصرة بعيدا عن كل مظاهر الاغتراب والتشاؤم، والتشيؤ التي يعاني منها الأفراد، حاولنا من خلال هذه الورقة البحثية تسليط الضوء على مساوئ العقلانية الأداتية، وكذا النتائج السلبية للصناعة الثقافية على الإنتاج الفردي والإبداع الخيالي، مبرزين وجهة نظر "أدورنو" الداعية لتصحيح مسار الفن بتحريره من مجمل الضغوطات والإكراهات بما فيها العقل والتقنية والصناعة الثقافية. وعليه نتساءل هل نجح "أدورنو" في نشر الرسالة الحقيقة والسامية للفن؟، هل تبلورت أفكاره الفنية واقعيا أم بقيت مجرد رؤى لا تخدم المصالح النفعية للدول الكبرى؟

الكلمات المفتاحية : التنوير ، العقلانية الأداتية، أدورنو، الفن ، الحرية.

***Abstract*:**

Art and aesthetic studies occupied an important place in contemporary philosophical and intellectual research, and the Frankfurt School is considered one of the most important theorists of artistic and aesthetic issues. On this field through his important contributions in theorizing the principles and foundations of art and aesthetic experiences, insisting on liberating minds and imaginations and thus liberating art that aims to reform contemporary societies Far from all manifestations of alienation, pessimism, and objectification that individuals suffer from, we tried through this research paper to shed light on the disadvantages of instrumental rationality and the negative consequences of the cultural industry on individual production and imaginative creativity, highlighting Adorno's point of view calling for correcting the course of art by liberating it from all pressures Constraints, including reason, technology and the cultural industry. Therefore, we wonder, did Adorno succeed in spreading the true and sublime message of art, did his artistic ideas become realistic, or did they remain mere visions that did not serve the utilitarian interests of the great powers?

***Keywords**: enlightenment instrumental, rationality, Adorno, the art, freedom.*

* المؤلف المرسل

مجلة البحوث والدراسات الإنسانية المجلد 17/ العـدد 02 –السنة 2024 ص ص 469–488

EISSN : 2588-2317 ISSN : 1112-8152

المقدمة

نادى الفكر التنويري قديما بتحرير الإنسان والفكر والعقل مما كان فيه من إتباع للزيف وللخرافات وللأساطير، وزادت رغبة الإنسان في اكتشاف المعارف اعتمادا على هذا العقل الذي أصبح مقدسا من طرفه، فأصبحت كل المعاني والمعارف تؤول عن طريق هذا العقل وما عداه هو مجرد خدع ومتاهات، وبالتالي رفض اللاعقل معتبرين إياه ناقصا وبعيدا عن تحصيل المعارف والوصول إلى الحقيقة واليقين المطلق، لكن رغم ما وصل إليه العقلانيون من حقائق، ورغم المبادئ والشروط التي زرعها الفكر التنويري ساعيا لتحقيقها، ومحاولا الوصول إليها، إلا أنه فشل في تحرير الإنسان من الهيمنة والسيطرة العقلية والتقنية الجديدة، فقد انتقل الفكر الإنساني من جهل ومغالطات الفكر الأسطوري إلى قبضة العقل وتحجره الذي أحكم قبضته على معارف الإنسان وعلى حريته و إبداعه وخياله، وجعله حبيسا للمرة الثانية لإكراهات قيدته وكبلت استقلاليته، وبالتالي بقي بعيدا كل البعد عن الحرية والحداثة المنشودة .

كان المشروع التنويري محلا للنقد من طرف النظرية النقدية التي رأى روادها أن الفكر الإنساني بقي مكبلا جراء الاعتماد التام على العقل وسيطرة التقنية، ولعل هذا ما دفع بالنظرية إلى إعادة النظر في مضامين وأهداف ونتائج هذا المشروع التنويري الذي سقط في وحل المغالاة في استعمال التقنية والعقل، وفي محاولاته الدائمة للسيطرة على الطبيعة والعالم، وبالتالي السيطرة على باقي العقول الأخرى والهيمنة عليها. حاولت النظرية النقدية معالجة الوضع الإنساني المعاصر وكذا حال المجتمعات الغربية التي أصبحت تعاني ركودا في الفكر في مقابل تهافت واسع وكبير على الحداثة الفكرية الجديدة، فكانت هذه الأخيرة من أهم النقاط التي ركز عليها كل من "أدورنو" ومناصريه عاكفين عليها بالتحليل والنقد، وقد تطرقوا لمجمل

القضايا والمستجدات التي تهم الفرد الغربي المعاصر محاولين الكشف عن أزماته النفسية والاجتماعية التي صاحبت الحداثة وعصر التنوير، والتي كان أبرزها التشيؤ والاغتراب، والتشاؤم الذي اكتسح فكره ووعيه، سالبا منه إرادته ورغبته في العيش، وهذا ما ولد عنه تراجعا في قيمة ومكانة الأفراد ودورهم الفعال في النهضة والتقدم في ظل التقنية والهيمنة التكنولوجية التي أعطت أولوية للتجارة وللربح السريع، و للعقلانية الأداتية على حساب الفرد وحريته، وإبداعه، وثقافته .

ركز رواد النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت اهتمامهم بمجال حساس جدا، وهو الوسط الثقافي الفني محاولين من خلاله البحث عن آليات وسبل للخروج من المجتمع العقلاني وتوجيه الفكر إلى الحقل الفني الجمالي الذي علقت عليه المدرسة النقدية أملها من أجل منح الأفراد أكبر قدر من الحرية والاستقلالية، نظرا لدور الفن في الكشف عن الوضع المتأزم للأوضاع الاجتماعية للإنسان، مشيرين في ذات السياق إلى تحرير الفن ذاته من كل زيف وكل قيد خارجي يحد من إبداع الفنان ، فلا بد لهذا للفنان المعاصر التحرر من التقنية ومن الهيمنة التكنولوجية وإفساح المجال للخيال وللإبداع الذاتي ودعم الحريات في الفن. يعتبر "أدورنو" أحد أهم رواد مدرسة فرانكفورت، المنظرين لمفهوم الفن الحقيقي القائم على الحرية وعلى الإبداع، فقد حاول من جهته إزالة الحجب عن خيال الإنسان والإبداع الفني، مؤكدا على أهمية تحرير الأفراد والعقول والخيالات من السيطرة والتقنية والعقلانية الأداتية، رافضا للفنون القائمة على أساس الربح والتجارة، مستهجنا لمفهوم الثقافة الصناعية، ونحن من خلال هذه الورقة البحثة سنحاول الوقوف عند أهم النقاط التي نادى بها رواد النظرية النقدية بخصوص فلسفة الفن والجمال في الفكر المعاصر، واقفين عند أبرز الرؤى الفنية والآفاق الجمالية التي ناشدها "أدورنو" من أجل إحياء الفن والإبقاء عليه، بعيدا عن الفنون الحالية المستهجنة من طرفه . وعليه يكون الإشكال التالي: ما

مفهوم الفن عند رواد النظرية النقدية؟ وماهي ضوابطه وأسسه المنشودة لتحرير الإنسان المعاصر؟ ما رأي "أدورنو" في الفنون المعروضة حاليا، وكيف كان نقده للثقافة الصناعية؟ وهل تم تحقيق حلم "أدورنو" في ترسيخ ضوابط للنظرية الفنية والجمالية المعاصرة؟

الفرضيات:

- فشل المشروع التنويري في السمو بالإنسان المعاصر.
- العقلانية الأداتية زادت من الهيمنة على العالم والسيطرة على خيالاته وإبداعاته.
- الفن هو أكثر المجلات إلماما بالحالات النفسية والاجتماعية للإنسان، وجب التوجه إليه وتبني رسائله الجمالية.
- للفن دروا هاما في إصلاح المجتمعات الغربية من خلال منح الأفراد الحرية في الإنتاج والإبداع، ولإفساح المجال للخيال للظهور والتجلي.

أهداف البحث:

- لا بد للإنسان المعاصر من العودة للفن وللجمالية، من أجل الاستقلالية وتحرير العقول والخيالات من التكنولوجيا والهيمنة التي فرضتها التقنية المعاصرة.
- يجب الاهتمام بالإنتاج الفني وتحسينه، وتحرير الفن من الصناعة الثقافية وقوانين الاستهلاك والتجارة.

اعتمدنا في بحثنا هذا على مقدمة استعرضنا فيها بداية الحداثة الفكرية ومساوئ عصري الميتوس واللوغوس، لنمهد للمرور إلى رأي رواد مدرسة فرانكفورت حول العقلانية الأداتية والفنون، ثم مررنا بمضمون وظفنا فيه أهم النقاط التي تبرز أهمية النظرية النقدية في إبراز الفن وقيمته الجمالية للمجتمعات المعاصرة، مركزين على وجهة نظر "أدورنو" الجمالية الهادفة لتحرير الفن والأفراد من العقلانية والتقنية الحديثة، وكذا الصناعة الثقافية، لنصل إلى خاتمة للبحث تؤكد على ضرورة تبنى الرؤى الفنية والجمالية من أجل إصلاح المجتمعات المعاصرة والسمو بالذات الإنسانية.

2. العقل التنويري والحداثة الفكرية:

1.2 فلسفة التنوير

سعى الفكر الإنساني إلى تجاز الفكر الأسطوري والخرافي والبحث على سبل وأليات لتطوير الذات والعالم، ومن أجل ذلك كان لا بد إلى العودة إلى العقل وتحكيمه من أجل التحرر من الأفكار الأسطورية القديمة ويكون ذلك بالخروج إلى ساحة النور والبعد عن الخرافات والجهل والأساطير البعيدة عن المنطق العقلي ، ومن أجل ترسيخ فكرة التنوير وتفعليها عمليا كان لا بد من تفعيل المعرفة العقلية والامتثال لها، وبسط نفوذها وشموليتها على مجمل قضايا الحياة حيث اتسعت هذه المعرفة العقلية وغزت كل المجالات الاقتصادية والسياسة والاجتماعية، وكذا الثقافية والفنية منها ، معلنة على ظهور ما يسمى "بعصر التنوير" وبسط نفوذ العقل وفاعليته على مجريات الحياة والوقائع اليومية

تأسس الفكر الحداثي على سمتين أساسيتين هما "العقل" و"الحرية" فكان كثورة عن كل تحجر فكري مهددا لثورة فكرية انسانية محطمة لكل ما هو تقليدي، ومنه برز عصر "اللوجوس" أو عصر التنوير وتم تحطيم زمن "الميتوس" والأسطورة والخرافة، وأصبح الاعتماد على العقل كركيزة أساسية ومنبعا للعلوم وللحقائق المطلقة، فنادى بالقطيعة مع الماضي الذي ينطوي على نقاط ضعف أو تدهور الفكر والإبقاء على مظاهر قوته وإعادة صياغتها والاستفادة منها في الحاضر أو المستقبل، كما تأسست الحداثة الفلسفية في الفكر العقلاني أو المذهب المثالي العقلاني على يد كل من "ديكارت (1724-1804) Emmanuel Kant " و"هيجل" 1770-1831) Georg Wilhelm Friedrich Hegel و"كانط"(1724-1804)Emmanuel Kant وكان ركيزتها وعمادها الأساسي العقل " فالفكر الفلسفي في المناخ الكلاسيكي الغربي قد أسس حداثته بمحاولة إعادة الاعتبار إلى العقل وإثباته من ناحية، وباستبعاد اللاعقل بجميع مظاهره من جهة أخرى ...وعلى هذا، فالعقل مفتاح الحقيقة والأسطورة مخبؤها." (ف.التريكي،1992ص69) فالعقل عند المذهب العقلاني هو أعدل قسمة

بين البشر وهو معيار الحقائق المطلقة واليقينية وهو منطلق ومنبع العمليات الإبداعية، وهو في نظرهم أفضل معبر عن الذات الإنسانية وسر قوتها في هذا الوجود، بحيث يصبح كل شيء أساسه الفحص العقلي والمعطيات العقلية الصادقة الثابتة التي لا تعرف الزيف، وبهذا يصبح العالم " محكوما من طرف العقل، وعبره يتحقق الإنسان من سيادته النظرية على العالم، الذي يغدو شفافا وخاليا من الأسرار." (م.سبيلا،2000ص19) فكانت غاية الحداثة الفكرية بهذا تحرير البشرية من سيطرة الطبيعة والبقاء تحت أمرتها، كما سعى الفكر الإنساني إلى استحداث طرق ومناهج جديدة تمكنه من السيطرة على العالم من خلال العقل بعيدا عن التفسيرات الخرافية، فالفلسفة العقلية دعت إلى تحطيم كل الأصنام التقليدية والمعتقدات الساذجة في دعوة منها إلى تمجيد العقل والعودة له كأساس ومنبع للحقائق المطلقة.

كان شعار "فلسفة الأنوار" في أوروبا هو الحرية والتقدم، محاولة إزالة الستار والحجب عن التفكير الإنساني، فالحداثة " كخطاب فلسفي ينكشف من خلال انشغال الفلاسفة بقضايا المعرفة، والحرية، والسلطة، والحوار، والرغبة ..الخ، يجعل منهم حداثيين بالضرورة لأن هذه القضايا تدخل في صلب الحداثة الفكرية. وقد انبثقت عن الخطاب الفلسفي في العصور الحديثة عدة مفاهيم تتضمن النقد والتنوير، والتقدم والمثقف، والفرد الذي سيتم الإقرار باستقلاله الذاتي، وتأثيره على مختلف مجالات الفعل الاجتماعي." (ع.بوزيرة،2011ص38) وقد عالج الفلاسفة قضايا ومفاهيم جديدة لم تكن من ذي قبل، فكانت الجرأة في طرح المسائل الوجودية ذات البعد الأنطولوجي والانشغال أكثر بالمفاهيم والمصطلحات التي تخص الذات الإنسانية وتدفعها للتقدم والرقي، لتدخل البشرية في عصور الأنوار متجاوزة للعصور القديمة خاصة عصر الظلام الذي كان مع رجال الكنيسة وظلمهم خلال القرون الوسطى. وأصبح البحث في الحداثة والخوض فيها يستوجب الرجوع إلى العقل ومبادئه معتبرين أنه أصدق معيار وميزان لمعرفة الحقائق.

2.2. العقلانية الأداتية وجدل التنوير:

رغم مساعي الفكر التنويري وجهوده الرامية إلى تجاوز الأفكار الخرافية إلا أنه لم يخلو هو الآخر من مغالطات وفجوات أدت إلى وقوع الفكر تحت إمرة العقل وقبضته، وهذا ما جعل من المشروع التنويري محلا للنقد من طرف بعض الفلاسفة والتوجهات الفكرية الفلسفية التي أعقبته، ولعل رواد مدرسة فرانكفورت أهم المجادلين والناقدين للعقل التنويري معلنين عن قيام مشروع وحداثة غربية جديدة مغايرة ومختلفة عن سابقتها التنويرية " ومن أهم الأسس أو المبادئ التي قام عليها المشروع العقل والحرية والعدالة واحترام كرامة الإنسان وحقوقه وفكرة التقدم الإنساني" (ك.بومنير،2010ص12). وقد شغل موضوع مصير الإنسان ووضعه الحالي في المجتمعات المعاصرة قلقا لدى رواد النظرية النقدية محاولين فك لغز السيطرة الذي استفحل في المجتمع في ظل التقدم التكنولوجي، وقد عالجت النظرية تغير الأوضاع والذي تمثل في اتجاهين هما: أولا السيطرة على الطبيعة واستخدامها كوسيلة، والثانية هو السيطرة على الإنسان ذاته واستغلال الطاقات البشرية فكان " تاريخ نشاط الإنسان للسيطرة على الطبيعة هو أيضا تاريخ لسيطرة الإنسان على الإنسان" (m.hokheimer,1974p143) وتطرق رواد مدرسة فرانكفورت لأزمات الإنسان المعاصر التي نجمت عن سيطرة العقل على كل المجلات والذي تولد عنه غياب الحريات وازياد الضغط على العقول واستفحال التكنولوجيا التي حلت محل الإنسان، هذا الأخير الذي غيبت ذاته وفكره وحريته وأصبح مهمشا في ظل التنوير العقلي والتقدم التكنولوجي، تعد هذه العيوب الأساسية للعقل التنويري هي من جلعت كل من "هوركهايمرHorkheimer" (1895-1973)، و"أدورنو" Theodor Adorno(196-1937) يصرحان في كتابهما جدل التنوير قائلان: " كان علينا أن ندرك وبوضوح أن مفهوم هذا الفكر ، ناهيك عن الأشكال التاريخية العينية ، ومؤسسات المجتمع التي يتواجد فيها هذا الفكر ، إنما تنطوي على بذرة هذا التراجع الذي نعانيه في أيامنا في كل مكان .والتنوير إن لم يبادر بعمل

تفكيري يطال هذه اللحظة من التراجع ، فهو كمن يقوم بترسيخ قده الخاص " (م.هوكهايمر و أ. ثيودور،2006ص16) بحسب راود النظرية النقدية، فإن العقل التنويري تحول من مشروع للتنوير ولتحديث الفكر الإنساني والفلسفي إلى مشروع هدم للذوات الإنسانية وللعقل البشري بحد ذاته من خلال السيطرة التي فرضها على العقول الأخرى، ومن خلال محاولاته الرامية لزيادة الهيمنة والسيطرة، وجعل الإنسان مجرد وسيلة أو آلة لتحقيق الربح والتسويق، وإنجاح المشاريع الاقتصادية في غياب تام للحرية وتحول العقل الإنساني إلى مجرد عقلانية أداتية، فكان " المفهوم الذي الأساسي الذي توصل إليه أصحاب النظرية النقدية. هو أن التقنية التي توصل إليها الإنسان من خلال سيطرته على الطبيعة نشأ شيء جديد هو التسلط على البشر " (م.نعمة، ر.جاسم عبيد،2014 ص110) وبسبب هذا التسلط العقلي على الذوات ظهر مفهوم التشيؤ، وذلك من خلال استغلال المؤسسات الاقتصادية للإنسان والنجاح في فرض سيطرتها عليه وأصبح عمله ونشاطه كله موجه للاستهلاك وللتجارة ،وبالتالي تشيأ العقل وأصبح ينظر إليه من وجهة نظر عملية مادية نفعية، وأصبح كأداة ووسيلة لخدمة هذه الأغراض النفعية الواقعية، مما يوحي بفقدان الحرية ونكران للذات الإنسانية الفاعلة، بحيث انقلب مفهوم التنوير وتغيرت نتائجه " وذلك أن حركة التنوير حتى وإن دعت تحرير الإنسان من عبودية الخوف والأساطير وادخلت العقل كأداة حاسمة في التعامل مع الأشياء والعلاقات والطبيعة والتاريخ فإنها في نهاية المطاف استسلم لأساطير من نوع جديد ولهذا يدعونا هوركهايمر وأدورنو عبر جدل التنوير إلى الوقوف على الأزمة التي أصبحت تعرفها الحضارة الغربية منذ بدايتها الأولى " (ك.بومنير،2010ص16)

قام رواد النظرية النقدية بنقد المجتمعات الغربية التي حولت التقدم الإنساني إلى مجرد تقنية راح ضحيتها الفكر والعقل والمعرفة الإنسانية التي أصبحت تحت سيطرة التقنية واستفحالها لتمس المجتمع والثقافة وتُغيب العقل الذي " لا بقاء له في حين يتحد بوصفه إرثا ثقافيا يوزع على غايات الاستهلاك ... يؤدي إلى جعل الناس

أقل قيمة بل أقرب الحمق ، فيصبح الإنسان في المجتمع يجسد ذروة الاغتراب ، والتشاؤم، فقد تحول الإنسان إلى مجرد عنصر صغير في جهاز إنتاجي ضخم إلى مجرد سلعة في سوق تعج بالسلع والمنتجات العادية منها والغريبة " (م.نعمة، ر.جاسم عبيد، 2014ص110) بالإضافة إلى تحول العقل إلى مجرد طابع أداتي يحتكم للسيطرة والتقنية التي كانت بدايتها موجهة للطبيعة لتبلغ ذروتها وسيطرتها وتتوغل في سيطرتها لتشمل العقل البشري " بحيث لا يكون للعقل في النهاية إلا طابع أداتي، وتصبح قيمته الإجرائية ودوره في إحكام السيطرة على البشر وعلى الطبيعة هو المعيار الواحد." (ع.مكاوي،2018ص21) كان تحليل رواد النظرية النقدية منصبا على التراجع والتخلي على مبادئ التنوير القائم على الحرية والعقل في وقت التطورات الهائلة والتسارع التكنولوجي الذي أدى إلى تراجع العقل التنويري وتخليه عن هذه المبادئ الأساسية الرامية إلى تحرير الإنسان من سيطرة الطبيعة والأساطير، ليصبح هذا الإنسان والطبيعة كلاهما تحت سيطرة التقنية، معلنا عن فشل المشروع التنويري الهادف للتقدم وللتحرر. أصر كل من "أدورنو" وأتباعه على نقد التقنية الأداتية وإبراز مساوئها ونتائجها السلبية على الفرد والمجتمعات المعاصرة، محاولين تصحيح مسار الفكر الإنساني والإعلان عن ثورة فكرية تمس كل المجالات ويكون عمادها الذات الإنسانية وإعادة الاعتبار لها" ولذلك يوجه أصحاب النظرية انتقاداتهم الحادة للاتجاهات الفلسفية الأخرى (كالوضعية والبرجماتية) ومناهج التفكير العلمي المتفق عليها، وأوضاع المجتمع الصناعي الذي يسلطون عليه النقد الجذري الشامل وهم يعبرون من خلال هذا النقد عن مطالبتهم بتغيير هذا المجتمع من أساسه تغييرا توريا ... يمتد إلى بنية التفكير والمواقف والحاجات واللغة التي يستخدمها الناس في ذلك المجتمع ."(ع.مكاوي،2018ص24)

3.الإنسان المعاصر بين العقلانية الأداتية والفن:

مست التقنية الحديثة كل مجالات الحياة، وكان أبرزها المجال الاقتصادي، ليليها المجتمع، ثم المجال الثقافي الفني، وقد تأثر هذا الحقل أشد التأثر بالعقلانية الأداتية، حيث تحولت الأعمال الفنية إلى مجرد سلع تعرض وتباع وتساوم، وأصبح الفن موجه للتسلية وللترويح عن النفس، وقد تميزت المرحلة بعد التنوير بانحطاط الفن وتراجعه في المجتمعات الغربية، في مقابل ذلك ظهرت الصناعة الثقافية التي أحكمت قبضتها على كل إبداع فني، وأصبح هذا الأخير تحت سيطرة التجارة والاستهلاك، والصناعة الثقافية ككل، وغدى الفن موجها لتحقيق الأرباح والمكاسب النفعية بتحكم جهات معينة به ، وكذا توجيهه لخدمة أغراض استهلاكية وغيب الفن الحقيقي المبني على الإبداع والحرية، وهذا ما أثر بدوره وقضى على الروح الإبداعية والخيال الذاتي، والفردي للإنسان المعاصر، بسبب استيلاء الصناعة الثقافية على عقول الأفراد، ليتحول التطور التكنولوجي والتقدم الأداتي نقمة على المجال الفني والثقافي، الذي تراجعت قيمته وفائدته للمجتمع، مقارنة بالتطورات الهائلة في المجلات الاقتصادية والتقنية الأخرى، ولعل هذا ما دفع "بأدورنو" في كاتب "جدل التنوير" يصرح بخصوص هذا الموضوع قائلا: " لم تصل تقنية الصناعة الثقافية حتى إلا إلى جعل الإنتاج انتاجا مقننا ، إنه صناعة أشياء متماثلة، مضحية بكل ما يشكل فارقا بين منطق العمل ومنطق النظام الاجتماعي"(م.هوكهايمر و أ. ثيودور،2006ص143) فالصناعة الثقافية هنا أصبحت فارغة من محتواها وذلك بابتعادها عن الفن الحقيقي وممارسة إكراهات ومثبطات خارجية قيدت من الإبداع الفني وجعلته تحت سيطرتها موجها للترفيه فقط ولأغراض نفعية يومية، وهذا ما جعل الفن يعاني الركود في المجتمع الغربي وبقي حبيسا للألة وللتقنية في ظل تراجع الاهتمام بالفن ورسالته السامية وكذا تجاهل الوسط الثقافي بأكمله، كل هذه الأسباب في نظر رواد النظرية النقدية أدت إلى فشل الصناعة الثقافية في تحقيق هدفها المنشود آلا وهو الرفع من المستوى المعيشي والحضاري للمجتمعات الغربية المعاصرة من خلال الفن المعاصر.

أصبحت الصناعة الثقافية وسيلة للسيطرة على الجماهير توحي بقمع الحريات وسلبها، كما أنها أصبحت هي المتحكمة في العقول وفي توجيه الرأي العام، وهذا ما يسميه "أدورنو" الخداع ، ذلك أن هذه الصناعة الثقافية الجديدة أصبحت وسيلة لخداع العقول وللتلاعب بالمفاهيم والقضايا المصيرية للإنسان المعاصر، فهي قد حولت مسار التفكير والإنتاج الفني وكيفته بما يخدم مصالح الدول الكبرى، وفي هذا قضاء على روح الإبداع الفني وإعداما للفن الحقيقي الهادف، والإبقاء على الصناعات الثقافية الزائفة من أفلام وحصص ترفيهية أو أنشطة فنية سطحية ومخادعة موجهة للاستهلاك اليومي وللمنافع الواقعية، تخدم رواد التجارة بالفن ، وبهذا أصبحت " الصناعة الثقافية صناعة تسلية ، فهي تمارس سلطتها على المستهلك "بواسطة التسلية التي ينتهي بها الامر بالانتهاء لا بمجرد إملاء بل بالعدوانية –اللازمة لها تجاه ما هو اكثر منها " (ك.بومنير،2010ص23) بحسب "أدورنو" فإن مثل هذه الصناعة الثقافية قد أدخلت العالم والأفراد في متاهات الخداع والزيف والبعد عن الحقيقة، وبقي المجتمع الغربي يعاني التشيؤ والاغتراب والزيف المصحوب بالجهل والزيف ، وذلك ببعده عن الفن الحقيقي الذي كان ينشأ وينمو في ظل الحرية والاستقلالية عن كل الأبعاد والغايات النفعية الأخرى، والذي حلت محله هذه الصناعة التي أصبحت هي الآمر والناهي والمتلاعب بالعقول والفنون" لقد وضعت الصناعة الثقافية حدا لكل ذلك ، بوصفها صناعة كلية ، فالعدم معرفتنا أي شيء خارج التأثيرات أصبحت هذه الثقافة خاضعة للصيغة أكثر من خضوعها للأثر الفني أي كان. "(م.هوكهايمر و أ. ثيودور،2006ص147) ومن خلال هذا كله أصبحت هي المسيطر رقم واحد على العالم ككل وأصبح الكل ينظر إليها على أنها شيء مهم وجب تبنيه واتباع أساليبه وتوجهاته من أجل الانفتاح الزائف، وكذا السيطرة التامة على العالم والأفراد لذلك " صار لزاما على العالم كله أن يمر عبر مصفاة الصناعة الثقافية "(م.هوكهايمر و أ. ثيودور،2006ص148)

ولقد شكلت هذه الصناعة جزءا حيويا من حياة الأفراد يتوجهون إليها لسد حاجاتهم ورغباتهم الواقعية واليومية وأصبحت هي بدورها تقدم أوهاما وأحلاما على أنها حقيقة، جاذبة لعقول الجمهور محكمة قبضتها على الوعي الجماعي لهم وأصبح الجمهور والمشاهد والمتتبع لهذه الصناعة يصدق كل ما ينتج من قبلها معتبرا إياه حقيقة وامتدادا لحياته الواقعية ، وبهذا تكون قد نجحت في سلب العقول والمخيلات وقضت على الإبداع والحريات وجعلت العالم يسير وفقها، ووفق ما تمليه هي، وخدمة لمصالح بعض الجهات والدول الكبرى، وحلت هي محل الإبداع الفني للإنسان " طالما أن الجهد المطلوب قد صار آليا إلى هذا الحد ، فلا مجال أذا بعد ذلك للخيال ....إن عنف المجتمع الصناعي قد صار جزءا من نسيج الذهن الإنساني "(م.هوكهايمر و أ. ثيودور،2006ص148-149)

نجحت الصناعة الثقافية إذن في القضاء على المبادرات الفردية والتنوير ومبادئه الأولى، وكذا الأهداف والغايات المسطرة له، وعجلت بزوال الفن وقضت على الروح الإبداعية واستبدال الفن الحقيقي بالفن الزائف والمؤقت العابث، وأصبح الإنسان مسلوبا لحريته ولفنه ولخيالاته الإبداعية، مجرد متبع وأداة في يد صناع الصناعات الثقافية التي أصبحت من جهتها أداة للسيطرة وللتحكم في العقول خدمة المصالح ولأطماع الدول الكبرى، وبهذا " يحق للصناعة الثقافية أن تتباهى كونها قد أمنت تحول الفن بشكل لا مهارة فيه إلى دائرة الاستهلاك، وأنها حررت التسلية من السذاجة وطورت إنجاز الصناعة"(م.هوكهايمر و أ. ثيودور،2006ص158) وبهذا تكون الصناعة الثقافية قد نجحت في تحويل المفاهيم والثوابت وتغيير الرؤى تجاه كل من الفن والتسلية، جاعلة من الفن مجرد عبث وتسلية وهو شكل من أشكال الانحطاط والتخلف، في حين أصبح الفن الزائف نموذجا يتبع وأبلغ مثال للحرية ولتقدم المجتمعات ورقيها، وهذا بدوره أدى إلى تكبيل عقول المستهلك إغلاق الأفواه المعارضة أو النقد من خلال توجيه الفن في خدمة الحاجات الاستهلاكية اليومية وتحويل مساره ليعود إلى مجرد تسلية في إطار ثقافي وجب

اتباعه، وأن هذه " التسلية قد أظهرت كيف ترتبط بدورها بالتلاعب التجاري ....إلا أن التقارب الموجود أصلا بين الأعمال والتسلية فقد ظهر في الغايات التي تعزى إليه : امتداح المجتمع .إن تتسلى يعني أن تكون موافقا "(م.هوكهايمر و أ. ثيودور،2006ص168-169) وهذا ما أثر على الفكر الإنساني والإبداع العقلي الذي أصبح في تراجع من خلال اتباع مثل هذه الهفوات الصناعية والإنتاجية الهشة وهذا ما نتج عنه تراجعا في المستوى الثقافي والفني الذي أضحى مجرد وسيلة تباع وتشترى، فاقدا لقيمته الحقيقية ورسالته السامية، بسبب الاعتماد على أساليب ونماذج جاهزة بعيدا على الإبداع والمغامرات الفكرية والجرأة الفنية.

4.دور الفن ومكانته في المجتمعات الغربية المعاصرة من منظور، "أدورنو":

1.4 الفن والمجتمع:

تعود وجهة نظر "أدورنو" حول الفن والقضايا الاستيطيقية إلى المرجعية الماركسية فهو يربط مجمل رؤياه الجمالة والفنية بالعودة إلى المجتمع بعيدا عن الرؤى العقلية والميتافيزيقية، فالأعمال الفنية عند "أدورنو" لها أبعاد اجتماعية وتربطها علاقة وثيقة بمجمل الأحداث الاجتماعية المعاشة، حيث ارتبطت معالجة الفن عنده بالوضع المتأزم للمجتمع الذي يعاني من الأداتية العقلانية، فهو" قد انتقل من نقد الفلسفة والمجتمع إلى دراسة الجماليات بوصفها تجسيدا ليوتوبيا النتاج الثقافي في المجتمع المعاصر " (ر.بسطويسي،1990ص60) فالفن عنده هو المعبر عن الحقيقة الكاملة عن الأوضاع الاجتماعية المزرية التي يعيشها الإنسان الغربي المعاصر ، فدور الفن بالنسبة له كشف الصراعات التاريخية والمعاناة الاجتماعية المتواصلة التي عانى منها الإنسان، ولا سبيل للخروج منها إلا بالعود للفن، للبحث عن ذاته ضمن هذه الصراعات والتناقضات اليومية، وقد كان "اهتمام النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت بالفن وبالأعمال الفنية والجمالية قد ارتبط بمجمل رؤاهم وبنقدهم الجذري للوضع القائم ولأشكال الهيمنة التي أصبحت تعرفها المجتمعات الغربية المعاصرة ....،

ذلك أن الفن هو في نظرهم البعد الوحيد الذي يستطيع الإنسان المعاصر من خلاله تجاوز السيطرة التي تهدده من كل جانب وبطرق وأشكال مختلفة " (ك.بومنير،2010ص70) فالفن هنا جاء ليحرر هذا الإنسان من الهيمنة ومن السيطرة الأداتية التي كبلت عقله وفكره، وحلت هي محله ، وللقضاء على هذه السيطرة كان لا بد من البحث عن بديل يحرر الإبداع والخيال والفكر معا، وذلك بالعودة للفن باعتباره "أداة تحرر وانعتاق وبعابرة أخرى نقول كأن الفن أصبح ملاذا للإنسان وانعتاقا من العقلانية الأداتية التي أحكمت قبضتها على الانسان وهيمنت على أبعاد وجوده ، لأن الفن نشاط يمكن أن يعبر عن الحرية (ك.بومنير،2010ص70)

سعى "أدورنو" من خلال حديثه عن الفن إلى تغيير المسار الفكري والفلسفي الغربي باعتبار أن جل الفلسفات الحديثة والمعاصرة أصبحت عاجزة أمام تقويم المجتمع وتصحيح هفواته، وتغيير أنماط وسبل العيش الكريم ، لذلك حاول "أدورنو" من جهته الإشارة إلى البعد الإستطيقي ومدى أهميته في اصلاح الأوضاع الاجتماعية المتأزمة، بدءا من الاهتمام بالفرد ومنحه أكثر حرية للتعبير، ولإبراز ذاته كذات فاعلة تعيي وجودها من خلال الفن، وكذا الاهتمام بالمصالح الاجتماعية المشتركة دون الغلو في اتباع التقنية "فأدرنو قد بدأ بنقد الأسس التي يقوم عليها المجتمع المعاصر من خلال نقده للفكر الفلسفي، ثم أعقبه نقد المجتمع ، والمرحلة الثالثة هي نقد مظاهر هذا المجتمع كما يتجسد في النتاج الثقافي ، وبالتالي فإن نظرته للفن هي جزء من نظرته للثقافة ذاتها " (ر.بسطويسي،1990ص61) ومن خلال البحث في الفن المعاصر ركز "أدورنو" على التفرقة بين الفن الحقيقي المعبر عن الحقيقة وعن المقومات الأساسية للإنسان، وبين الفن الزائف الذي تكون الصناعة الثقافية مرجعتيه، حيث قام بنقد كل من الموسيقى الزائفة والأفلام السينائية الموجهة لغسل الأدمغة وللسيطرة على الأفراد، مشيرا إلى خطرها على الفكر وعلى الحرية الذاتية، كما نوه "أدورنو" إلى خطر المجتمع الاستهلاكي الذي أصبح مجرد وسيلة للربح

في يد الثقافة الصناعية، ملحا على ضرورة الاهتمام بالوعي الجماعي واصلاحه من خلال الفن الحقيقي، الذي بدوره سوف يعمل على فك العزلة عن المجتمعات المعاصرة وسوف يحررها من السيطرة والهيمنة الحالية.

ألح "أدورنو" على تحرير الفن من السيطرة العقلية وذلك بإفساح المجال للإبداع الفني والتحرر الجمالي، وخلص إلى أن " الفن كممارسة هو ضرورة على المستوى الأنطولوجي للخروج من أسر " العقل الأداتي " والعقل التماثلي السائد الذي يوحد بين العقل والدولة، لأن الفرد يتحرر، أو يمارس حريته في الفن."(ر.بسطويسي،1990ص59) "فأدرنو" هنا حاول إرجاع قيمة الفن التي سلبت منه مع فلسفة الأنوار التي أعلت قيمة العقل على حساب الابداع الفني ، مشيرا إلى أهمية الفن في تحرير الإنسان المعاصر من خلال تحرير فكره ومجمل الوظائف الإبداعية والاجتماعية، مؤكدا على أهميته في تطوير الذوات والرقي بالمعرفة الإنسانية، فالفن بالنسبة له جاء لإنقاذ العقل والخيالات من وحل الهيمنة والغموض والمغالطات التي فرضتها الأوضاع الاجتماعية الراهنة، وكذا الأداتية العقلانية، وكذا الصناعة الثقافية، وبهذا فمهمة الفن لن تكون سهلة، بل يعتبر تحدي لجميع المثبطات والإكراهات الخارجية، وبهذا يكون الفنان في صراع متواصل مع الضغوطات والتحديات باعتبار الفن " يمثل ذلك الفكر المغاير نوعيا عن ما هو موجود في الواقع القائم " (ك.بومنير،2010ص70).

2.4الحرية في الفن:

يعمل الفن من وجهة نظر "أدورنو" على استقلال المجتمع، والواقع، والأفراد من خلال رفضه للوضع القائم، وكذا نقده للثقافات المزيفة وللفنون الباهتة التي لا تعبر إلا عن المصالح المؤقتة والربح السريع ، "فأدورنو" يرى أن مثل هذه الثقافات الصناعية والفنون المزيفة تحمل بذور فنائها معها لأنها لا تبحث في الحقيقة، ولا تمنح الحرية للفرد الذي سلب من خلالها إرادته ووعيه وإبداعه ، وهذا ما أثر

بالسلب على انتاجه الفني الإبداعي، وتراجعت قيمة فنه بسبب الهيمنة والسيطرة الخارجية " ولهذا فالتعبير الفني والجمالي هو الوسيلة الأخيرة الممكنة لمقاومة الفرد، ولحماية وعيه من الاستلاب، وينبغي لهذا التعبير أن يكون متفوقا ومتعاليا على التكنولوجيا الراهنة ، حتى لا يندرج تحت أشكال الواقع، وذلك لكي يمكن للفن وللعمل الفني تأدية وظيفتهما النقدية " (ر.بسطويسي،1990ص63) ومن أجل ذلك دعى "أدورنو" لإقامة فنا حقيقيا بعيدا عن التقنية وعن تدخل التكنولوجيا الحديثة التي يراها قد سلبت من الفنان إبداعه وإنتاجه وحريته، وحلت محله بشكل منبوذ ومبتذل ، جاعلة من العقل والخيال الفردي حبيسا لها تحت إمرتها غائبا تماما عن الإبداع وعن التميز، ذلك أن هذه التقنية الجديدة جلعت من الأعمال الفنية أعمالا مكررة فاقدة لعنصري الجدة والانبهار، فهي لا جديد فيها ولا إضافة جمالية تقدمها، بل أصبحت خاضعة لقانون الطلب والاستهلاك ، تمشي في سياق البيع والشراء فاقدة لمحواها الفني والجمالي، معبرة عن عقمها وعجزها عن تقديم إنجازات وابداعات مختلفة فهي مجرد تكرارات لما سبق ، فهذا الفن " وإن اختلف في جزئيات لكن يتشابه في أخرى، وبقدر ما ينتج وسائل الإنتاج وتقنياته من إعادة إنتاج تشابه بين موضوعات الواقع ، فنرى أن هناك لا شيء جديد تنتجه وسائل الإنتاج رغم تطور التقنيات. " (م.هوكهايمر و أ. ثيودور،2006ص148) يمجد "أدورنو" الفن القائم على الشكل وكذا المحتوى والمضمون ذو الأبعاد والغايات الجمالية الهادفة، ويرى أن الفن الحقيقي هو الذي يحمل في طياته أكبر قد من الاستقلابية والتحرر بعيدا عن الزيف والمتاهات التي تعرضها الفنون الحالية ودُور السينما ،فهو يلح على رفض القوانين والضوابط التي تحد من إبداع الفنان وتكبل خياله، ويراه فنا معدما مآله الموت لأنه وضع مسبقا شروطا وقوانين تحكمه وتحدد مساره ومحالات إبداعه، فالفن الحقيقي عند "أدورنو" هو ذلك الذي يعبر "عن الحلم بعالم يمكن أن يكون مغايرا عن ما هو سائد " (a.théodor,1984p48) يكون عمل الفنان فيه هو المعارضة والنقد، من خلال نقد الصور الفنية القائمة والمعروضة،

والاتيان بعمل فني وجمالي بديلا عنها، يهتم بالشكل والمضمون، حيث يكون الشكل فيه معبرا عن الحقيقية الواقعية ومستقلا بذاته عن كل توجيهات أو إرشادات أو قوانين أو إكراهات خارجية تحد من زيادة إنتاجه وإبداعه ، وبهذا يكون هذا الفن الجديد هو تعبير أو مقاومة لكل زيف أو تقليد وتكرار، يكون فنا حقيقيا قائما بذاته عماده الحرية والاستقلال.

من خلال هذا الفن القائم على الشكل والمضمون وكذا الحرية والاستقلالية يتمكن الفرد والفنان المعاصر على حسب "أدورنو" من تجاوز الواقع الاستهلاكي وتمكنه كذلك من السيطرة على التقنية الأداتية، وكذا تحويل مسار الثقافة الصناعية وجعلها في خدمة الفرد لا العكس، وبالتالي منح أكبر قد من الحرية للفنان وللأفراد لإصلاح المجتمع، وهذا هو الفن "الوحيد المتاح له الوجود ، بينما الفن الذي يكرس لما هو قائم هو الفن المحكوم عليه بالموت" (ر.بسطويسي،1990ص61) فالتجاوز لما هو قائم ونقده هو السبيل لتحرير الفرد أولا، ثم المجتمع ككل ، ويظهر هذا التحرر من خلال الأعمال الفنية المستقلة بذاتها، والتي تحمل في طياتها جملة من الإصلاحات والرؤى الهادفة بعيدا عن الأهواء الذاتية، والمصالح النفعية وهذا ما يساهم بدوره في زيادة وعي الأفراد وإحساسهم بمدى ضرورة الفن وأهميته للتحرر ولإبداع وإنتاج الصور الفنية والجمالية، لكن رغم حديث "أدورنو" على أهمية الفن لإصلاح المجتمع وضرورته لرفع ولزيادة الوعي الفردي للأفراد، إلا أنه يستبعد من أن يكون للفن دورا أخلاقيا فهو دائما يلح على استقلال الفن من الشروط والغايات النفعية العملية المؤقتة، ولو حددنا هدفا أخلاقيا للفن نكون هنا قد قيدنا مساره وأضفنا له نوعا من الضغوطات والاكراهات الخارجية الأخرى، وبالتالي يبقى هذا الفن قابعا تحت أساليب السيطرة والهيمنة ولكن بأساليب متنوعة، وهذا ما سوف يؤثر ويعرقل العمل الفني جاعلا منه مجرد جهد إنساني خالٍ من الإبداع والتحرر المنشود، فالعمل" الفني الذي

يستعير مضمونه وهدفه من ميادين أخرى بشكل مباشر تتحطم فيه وحدة الشكل والمضمون، والفن من وجهة نظر أدورنو لا يمكن أن يقدم الأخلاق المعيارية ، والمعيارية تفترض أن شخصا ما يمتلك الحقيقة وحده، وهذا وهم ." (ر.بسطويسي،1990ص78)، فالفن يجب عزله عن الأبعاد الأخلاقية والتربوية وفك القيود والأهداف التي تجعله وسيلة للتربية وللتوجيه، فالفن الحقيقي الذي ينشده "أدورنو" هو الفن المتحرر من كل القيود سواء كانت تقنية أو نفعية، أو أخلاقية، فالفن الهادف عنده هو الفن المعبر عن الذات وعن الوضع الاجتماعي المعاصر أساسه الحرية والإبداع، وما عاداه من فنون استهلاكية أو تربوية تبقى منبوذة ومستهجنة من طرف "أدورنو" وأتباعه من رواد النظرية النقدية.

الخاتمة

- أكد رواد النظرية النقدية على فشل المشروع التنويري بسبب بقائه تابعا لسيطرة العقل وعدم تحرره من الضغوطات الخارجية.
- حاول كل من "أدورنو" وأتباعه إعادة تصحيح المسارين الفكري والحداثي من بعض المغالطات التي جلعت من التقنية أساسا للعمل والإنتاج الإنساني، بعيدا عن الاهتمام الذاتي للفرد وبحريته واستقلاليته ووجوده الفعلي
- الإشارة إلى بديل ثقافي يستطيع توعية الفكر الإنساني لمخاطر استعمال التقنية، والتسارع التكنولوجي الذي عاد بالسلب بالدرجة الأولى على الإنسان المعاصر، وتقدم المجتمعات التي أصبحت تعاني مجمل الأمراض النفسية نتيجة سلب الآلة لعقل الأفراد ولإبداعهم وحرياتهم.
- الفن هو الحقل الأهم والأساسي لإعادة الروح الفنية والجمالية للإنسان المعاصر، وهو السبيل الأوحد لإعادة اعتباره، وإعادة الثقة بنفسه وبوجوده.
- علينا التفرقة بين الفن الحقيقي المنبعث من الذات الحالمة المتطلعة لاكتشاف الحقيقة والبحث فيها، عن الفن الزائف المعتمد على التقنية وعلى الصناعة الثقافية
- يجب محاربة كل أشكال الهيمنة والسيطرة، وكذا الزيف في المجالين الفني والجمالي، والابتعاد عن التكرار والعمل على بلورة الأفكار والخيالات في صور فنية وجمالة جديدة بعيدا عن الجاهز والثابت.
- علينا الإيمان بقدرة الفن على تخليص المجتمعات المعاصرة من وحل الآلة والتشيؤ، والإيمان بقدرتها الإبداعية والإنتاجية، فالفن كفيل بجعل الذات الإنسانية سيدة القرار، هي من تتحكم وتسير الآلة والتقنية وفقا لمتطلباتها وليس العكس.

- الحد من استعمال التقنية في الفنون والعودة للاستقلال والتحرر الفكري والفني والابتعاد عن الثقافة الصناعية التي اكتسحت الفن الحالي.

قائمة المصادر والمراجع

- Max.h(1974) ECLIPE DE la raison .trad .j.Debouzy (paris les éditions payot.
- Adorno.t(1984) Notes sur la littérature,trad . Sibylle Muller ,paris ,Flammarion,
- عبد السلام،ب.(2011) طه عبد الرحمان ونقد الحداثة(ط1)جداول للنشر والتوزيع
- رمضان،ب.(1990)علم الجمال لدى مدرسة فرنكفورت أدورنو أنموذجا(ط1) مطبوعات نصوص.
- عبد الغفار،م(2018) النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت، مؤسسة هنداوي سي آي سي.
- فتحي،ال ،و رشيدة، ال(1992)فلسفة الحداثة ،مركز الإنماء القومي.
- كمال،ب(2010)النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت من ماكس هوركهايمر إلى أكسل هونيت(ط1)منشورات الاختلاف.
- مُحَمَّد،س(2000) الحداثة وما بعد الحداثة(ط1) دار توبقال للنشر.
- ماكس،هـ، وأدورنو، ث(2006) جدل التنوير، دار الكتاب الجديدة المتحدة .
- مُحَمَّد. إ،و رويدة ،ج(2014)أثر نقد العقل الأداتي، كلية الآداب. مجلة آداب الكوفة، مج7،(العدد20)، ص 102-126